(المخاطرة والحذرعند شعراء الفرسان قبل الاسلام)

دراسة موضوعية فنية

م.د نعيم عبد ياسر صينخ

خلاصة البحث

إن طبيعة الحياة في جزيرة العرب قبل الاسلام لها ظروفها الخاصة بحكم مجتمعها المقاوم الذي انغرست في نفوس ابنائه روح التحدي والتصدي للوقوف بوجه الازمات التي تواجههم، والتي تسفر نتائجها حروب وصراعات بين قبائل المجتمع نفسه، ومحور هذه الصراعات والنزاعات يقوم على مبدأ عدم التنازل عن الحقوق، فضلاً عن اعتزاز العربي بشخصه، عزته وكرامته، أنفته وإبائه، وكبريائه وشموخه، متغنياً بنشيد الحرب، متمسكاً بقيم الرجولة، مدافعاً عن قبيلته وقومه بكل فخر واعتزاز، متقدماً الصفوف لا يبالي؛ ليرسم صوراً مضيئة ومشرقة لمجتمعه؛ لذا نجده يغوص في ميادين الحرب يكر ويفر، ويباغت ويناور، ويحاذر ويخاطر، على وفق خططه الحربية لمواجهة الخصم بأقل الخسائر، على الرغم من أن دخول الحرب التي قد تؤدي إلى نهاية مأساوية، فهو مؤمن بقضيته التي سوف تجنى ثمارها بنتائج محمودة في مقدمتها إثبات الوجود والحفاظ على الكرامة والعزة فضلاً عن حماية الارض والعرض والشرف .

هكذا كان الشاعر المغوار المخاطر يتمنطق بقول الحق متفائل بمعنوية وهمة كي يسطر تاريخه بأحرف من نور من دون التفكر بالمغريات الدنيوية ولا يمكن أن يتحقق ما يهواه إلا بالمغامرة والمخاطرة لكي تبقى هذه القيم في الحفظ والصون، ولم تكن هذه النزعة تحمل صفة التمادي؛ وإنما هي أفكار قد تشبعت بنشيد النخوة والارادة بثبات منقطع النظير وهو يعيش عالمه الآخر لكي يحظى بالعلو والرفعة متغنياً بهوى الحرية بسيوف تخضبت بخلود الذكر.

الكلمات المفتاحية: الصراعات والنزاعات, ميادين الحرب, الكرامة

Abstract

In the Arabian Peninsula, the nature of life in before the appearance of Islam had its own situations by virtue of its resistant society; which is embedded in the spirit of its people and overcoming the crisis that they face. It actually would cause wars and conflicts among the tribes of these communities and it intervened on the principle of not waiving rights over that. Additionally, the pride of the Arab in his person, his pride, dignity, self-respect, pride, pride and loftiness, singing and lofty, adhering to the values of manliness, in his tribe and people with all his pride, ahead of the ranks, indifferent, dangers ,Self-realization, and based on your plans; from

the start of the war that has begun a role to a tragic end, as if someone believes in his cause that will reap its fruits with commendable results, foremost of which is the affirmation of existence, and the preservation of dignity and pride as well as protecting the land and honor.

As a matter of fact, the brave and risky poet was uttering the truth; he was optimistic and delusional. His history was shining without thinking of the temptations of the life. These values are conducted to remain in preservation and protection, and these values were not in preservation, but rather they are ideas. With an unparalleled steadfastness, the one whose world lives in order to tread high and lofty, sings of love for freedom, with a passion that has been subdued by the eternity.

المقدمة

أولاً: مشكلة البحث:

يحاول الباحث أن يقف على بعض خصائص الشعر العربي قبل الاسلام والبحث عن بعض سماته واتجاهاته .

ولا يجد سبيلاً إلا أن يحدد قيمة أو قيمتين حتى يعطي بحثه أهمية وموضوعية، ذلك أن الشعر العربي اختلفت اتجاهاته ومقاصده باختلاف الاحداث والاحوال لتلك القبائل .

من هنا يحاول الباحث دراسة موضوع قيمتين امتاز بها شعراء الفرسان في الجاهلية وهي المخاطرة والحذر ومعرفة خصائصه الاسلوبية والفنية، لكي يتسنى للباحث ذلك لابد له أن يقف رويداً على أحوال عصرهم آنذاك، وذلك أن الاتجاهات الادبية والمقولات الشعرية كانت بطبيعة الحال تتأثر بأحوال القبائل الاجتماعية والثقافية والسياسية، وكان لهذه الاحوال المختلفة أثراً كبيراً في مقاصد اتجاهات الشعراء الفرسان النفسية والاجتماعية فضلاً عن منهجية القصيدة في اللغة والمعنى.

لذا وجب على الباحث معرفة المواقف والاحوال التي دفعت بالشعراء الفرسان في الجاهلية بتضمين قصائدهم المخاطرة والحذر كقيمتين اعتمدها الشعراء في الجزيرة العربية في أدبهم وفنهم، ذلك أن الشعر العربي وأسلوبه الفني سيبقى توثيق لتلك الفترة العريقة، ووصف لعادات وتقاليد وثقافة العرب واثراء لمهارات اللغة ومتانة لصيانة المعاني والكلمات للأجيال الحاضرة

والقادمة فضلاً عن احتوائه لصور متنوعة ورائعة من الفن والموسيقى وعدداً كبيراً من الاوزان الشعرية من: الحماسة والفخر والهجاء والمدح والغزل ... إلخ، والسؤال الذي يحدد مشكلة البحث هو: ماهي المواقف والاحوال الاجتماعية والنفسية التي دفعت بالشعراء الفرسان بتضمين قصائدهم الفنية معاني المخاطرة والحذر؟

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في أهمية العصر الجاهلي الذي سبق الدين الاسلامي، والذي تميز بفصاحة اللسان والذكاء الحاد، والفراسة وسرعة البديهة، وبفنون الشعر المتنوعة، والتي تنوعت أغراضها حسب المقاصد والأحوال، والدور الوظيفي الذي يؤديه شعراء الفرسان قبل الاسلام على وجه الخصوص في اوقات الازمات والمخاطر، ووجوب الحذر في الحروب، وأوقات الغزو، وأهمية هذا الدور من الناحية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والنفسية المتمثلة بإدامة تقوية أواصر القبيلة والجماعة العصبية والحفاظ على المال والعيال؛ وذلك عن طريق قيام شعراء الفرسان بتوظيف الالفاظ والمعاني والاوزان الموسيقية والصور الفنية التي تحاكي مشاعر القوم وتغوص نفوسهم وتطأ قلوبهم، وتستنهض هممهم ليستعدوا، ويأخذوا حذرهم فضلاً عن ذلك فإن أهمية البحث تأتي كونه يشكل إضافة علمية في حقل الأدب العربي لعصر ما قبل الاسلام .

ثالثاً: أهداف البحث:

لابد من أهداف يسعى البحث إلى تحقيقها في ضوء الاجابة عن أسئلة البحث وتأسيساً على التساؤل المطروح في مشكلة البحث فإن الدراسة تسعى إلى تحقيق الاهداف الاتية:

1- التعرف على الدور الوظيفي (الاجتماعي والنفسي)، الذي يؤديه شعراء الفرسان في عصر ما قبل الاسلام في المخاطر والحذر .
2- التعرف على الابعاد القيمية والأدبية والفنية والثقافية في المخاطر والحذر في شعر شعراء الفرسان في الجاهلية .

(المخاطرة والحذر عند شعراء الفرسان قبل الاسلام) دراسة موضوعية فنية

لعل من دوافع التعامل مع الحياة هو أخذ الحيطة والحذر أو المجازفة حسب الموقف الذي تَعْرضُهُ القضية أو الامر، فكل شيء في الحياة الجاهلية وإن كان لم يحكمه القانون فلا بُدَ ان تحكمه التجارب والأعرآف وسيرة الأوائل المفكرين واصحاب الفلسفة والاجتماع ، الذين يبصرون ويذكرون ، ويوضحون الطريق للتعامل مع مجريات الحياة على مختلف انواعها، فعلى المربي ان يحاذر بشروط ويخاطر بشروط حسب مايتطلبه الموقف من ضرورة وعلى وفق ما يُقدره او ما يحتمله ذلك الموقف, المبني على مايمتلكه صاحب القضية من سرعة البداهة, والقدرة على اختيار الحل بقبضة قرار مرتجل طمعا لإنهاء ازمته ولاسيما اذا كان مؤمناً بهدفه الذي يصبو اليه .

والحذر: هو اخذ التحوطات والتحسب لغد لكي لايدخل في مداخل لاتسعفه الى بر الامان لا بل قد ترمي به الى نهاية غير محمودة. اما المخاطرة: فهي تعرض الفرد الى ازمة تُجْبُرهُ الخوض في غمار الصعاب، وهي محاولة لمعالجة امره كي يتجاوز ازمته فبذلك ينتفي الحذر وفي الوقت نفسه قد يكون الهجوم المبكر والاسراع في الانقضاض على الخصم ضرورة ملحة؛ لان الهجوم خير وسيلة للدفاع احيانا للمُخاطر، وهي فرصة لانقاذه من الهلاك .

والعربي بطبعه تربى على منظومة المبادىء والقيم، متغنياً فيها بخلقه الرفيع وسلوكه الراكز، معضداً ذلك بالرزانة وحسن التصرف الموثق بالحكمة وسداد الراي، وهي قواعد موروثة سارعلى خطاها ليرضي ابناء جلدته (مجتمعه وقومه، اهله واحبابه)

ولم تكن هذه القيم وليدة الحدث بل ازلية القِدم امتدت جذورُها حتى يومنا هذا ، لكونها متوارثة عن الآباء والأجداد، وهي الجادة أوالسكة التي تُعُّد نقطة الانطلاق الى ذرى المجد والسؤدد للحظوة بمنزلة الرفعةِ والمكانة , بالجاه والتقدير مستهوياً الأمن والأمان وحب الاستقرار بنوعيه النفسي والمكاني ، وذلك للظفر بحياة تسودها السكينة والهدوء وفي الوقت نفسه لايسمح للاخرين السكوت على كل ماينا قض فكرته لذا نجدهُ يناصر من يوافقه في هذه الرؤية، ويجادل من يتعارض معها، وهو طموح مشروع لمن يحمل روح الأمل والتفاؤل، وهو حق

من حقوقه ، وشعور متنامي يهدف الى كل ماتستهويه الذات من خير ، المبني على حسن النية وبمشاعر صادقة لكي يتفاعل مع الاخرين ممن يحملون الشعور نفسه بطيبة القلب وحسن معشر, وإذا حصل خلاف مايفكر به ، ويثقف من اجله سوف يكون في جدل وخصام ممايفضي بنتائجٍ غير محمودة تتولد من جرائها العدوات والتناحر، تسفر نتائجها بحروب لايحمد عقباها معرضةً ذويها الى المخاطر .

علما إن العربي لم يكن ميالا للمخاطر إلا لضرورة مُلِحة، أولغاية منشودة، أو لهدف سام, وهو تحقيق ارادة الذات المتعطشة لهوى المعالي ،والعزّة، والشموخ والكبرياء فضلا عن حب الظهور بما يملأ المكانة ويعزز الرفعة, وهكذا كان الشاعر العربي يغرد بنشيد القيم ، التي عُرِفَتْ بالثبات وعدم التردد، بما يمتلكه من ارادة وعزيمة , وحكمة وحزم؛ لذلك فهو المتمنطق في القول ، والمتقدم في الفعل .

وقد تجسدت هذه المعاني عند عنترة بن شداد في حديثه عن ذاته، وسلوكه في سوح الوغى، مؤكدا إلتزامه بوصية عمه، وهو يرسم صُورَهُ الشعرية بالبيان تارة وبالحس تارة اخرى، ففي البيان كنايته (اذ تَقْلِصُ الشفتان) صورة حية لنقل وصية شخص يهمه قد خاض تجربته الحياتية , مستنبطا درسه لذويه (ساعة الخطر حينما يكشر الابطال عن انيابهم , ويشتد أوار المعركة ولاتسمع للابطال الا غمغمة في صدورهم بأصوات تسمعها ولاتفهمها)[1] وهم يتذرون بحماه من وقع الاسنة، متقدماً قومه في سوح الشرف، ملتحما بالصفوف لمواجهة الخصم، وهو يرسم هذه المشاهد الحربية بصورة البيان المعززة بالحس السمعي, والذي يشد الأزر, ويبعث روح الحماس من جراء الاثارة والحث , دافعا قويا للإنضمام تحت لواء الحرب بخطوات مبعثها العزة بالانتصار, وبكبرياء البطولة غير مبال لرماح الخصم التي عرفت بالفخامة والطول, وهي صورة واضحة العيان من خلال فن الوصف المعزز بالتشبيه (كأنها اشطان بئر في لبنان الادهم) وهو يرسم هول الخطر الذي داهمه وداهم فرسه فكإنها حبال موجهة صوب فرسه, إذ يقول:[2]

ولقد حفظت وصاة عمى بالضحى إذ تَقْلِصُ الشفتان عن وضح الفم

في حومة الموت التي لاتشتكي غمراتها الابطال غير تغمغم

إذ يتقون بي الاسنة لم اخم عنها ولو اني تضايق مقدمي

([1]) في تاريخ الادب الجاهلي: 315 .
([2]) شرح ديوانه: 180 – 182 .

لما رأيت القوم أقبل جمعهم يتذامرون كررت غير مذمم

يدعون عنتر والرماح كأنها اشطان بئر في لبان الأدهم

وتبقى بصمة الصمود والتصدي راسية الأثر، وفي قصص حوارية يسجل لها التاريخ بأحرف من نور , فالشاعر بوصفه هو الاداة الاعلامية الموجهة صوب جمهوره ؛ لبث هذه المواقف عبر شاشة أجوائه الفضائية ضمن فضائه الواسع (جزيرة العرب) بنشيد العزَّ والافتخار , وبإرادة لاتنكسر , متغنياً بمفردة المخاطر التي أحاطت بشخصه وراحلته وعلى الرغم من ذلك فهو الرجل الصنديد الذي لم تزحزحْ إرادته او تحجم نواياه لا بل يواصل السير بخطاه ؛ لكسب المعركة لصالحه ، بدهائه وذكائه ، وإن الذكاء يتمثل في قدرة صاحبه على التكيف السريع مع المواقف التي تواجهه واستغلالها لقضيته والذكاء كذلك هو ((القدرة على التخلص السريع من المأزق))[1] واجتياح الازمة بقرار مرتجل , وقد رسم لنا عنترة هذه المعاناة بصورة تكشف عن تصديه للخصم بكل لوازم القتال المتاحة , وصموده كذلك من خلال موقفه مع راحلته وشكواها التي وصلت ذروتها الى الترحم ، وفي وصف دقيق لإنحدار الدمعة ، صورة حيّة من ارض المعركة , موقف آخر يعزز به ثباته , هو عدم قبول العذر والتبرير في احلك الظروف والمواقف من اجل هدف سامٍ هو دفع الأذى والخطر الذي بات يداهم الجميع لولا التجلد والتوشح بسلاح الصبر , إذ يقول:[2]

مازلت ارميهم بثغرة نحره ولبانه حتى تسربل بالدم

فآزور من وقع القنا بلبانه وشكا إليَّ بعبرة وتحمحم

لوكان يدري مالمحاورة اشتكى أو كان يدري ماجواب تكلمي

والخيل تقتحم الخبار عوابسا مابين شيظمة وأجرد شيظم

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدم

---

(1) أسس الفلسفة : 478.

(2) شرح ديوانه 183-184 الخبار : ما لان من الارض وكانت فيه حجارة , وذلك أشد مايكون على الخيل.

أما موضوع الهوى والغرام قد تَشَرَّبَ جَسَدَهُ وَدَمَهُ , وامتزج بعاطفته , وشعوره نحو من تعلق بهواه , وخاطر من أجله , فبات يدلو دَلْوَه , مستطرقا بالحديث عَنْهُ عِبْرَ حواره القصصي المتسم بالسرد ، وسيلته لبث شكواه المّرة , وفي محمل الثقة عِبْرَ منفذ الأداء الفني ؛ لنقل مافي كوامن الذات اتجاه الطرف الآخر (عَبْلة) مناديا إياها وبلغة الذات الأخاذة المؤثرة ، وبجرس موسيقيّ متكرر, مؤكدا للفظه بصيغة النداء (ياعبلَ) ثلاث مرات في صدور أبياته الثلاثة وعلى التوالي ، دعوة توكيدية مفعمة بالأسى والتوجع لألم الفراق , وللشد وجلب الانتباه نحو من كابده بنيران الهوى ، ((وهذه القوة الفنية في التصوير , انما يتميز بها الادب من بين الفنون الجميلة الاخرى , فليس هناك من هذه الفنون من يستطيع ان يبدع صورة حيّة تتحرك وتتحدث سوى فن الادب)) [1] ولولا خياله الطارق , ودوره في كبح جماح إرادة الذات لكان في أمرٍ لايُحمدٌ عقباه , مفتخرا بذاته , قيادته وحسن بلائه , وهو يخوض غمار الموت بجدارة , ومعرضاً نفسه للهلاك والخطر إرضاءً لذاته ولمن يهواه , اذ يقول[2]

ياعَبْلَ ! نار الغرام في كبدي تَرْمي فؤادي بأسهُم الشَّرَرِ

ياعبل ! لولا الخيال يَطْرُقني قضيْتُ ليلي بالنَّوح والسهرِ

ياعبل ! كم فتنة بُليْتُ بها وَخُضْتُها بالمهند الذَّكر

والخْيل سُودُ الوجوه كالحةٌ تخوضُ بَحْرَ الهلاك والخَطرِ

أدَافع الحادثاتِ فيك ، ولا أطيقُ دَفْعُ القضاءِ والقدرِ

ونستشفُ من الابيات الشعرية اعلاه، وكأنه يشكو لعَبْلة , كيف السبيل إليها , وإلى حبَّها , مُبيناً لها حجم مَحَبَته التي وصلت الى درجة الهيام , وهو يعيش عالم الاحلام بعيداً عن الهدف المبتغى , ولو كان مطلبها في اعلى درجات المغامرة لدخلها فَتَخَيُلهُ يقف عاجزا أمام حُبَّها , يتمنى لو كانت مغامرة لخاض غمارها بعنف؛ لأن الدفاع عن هوى محبوبته أشد من مغامراته في سوح الوغى .

هكذا احتفظت ذاكرة العرب على مرور الزمن بشخصية إنفردَتْ عن ذويها بكل صفات العِزَّةِ والكمال ، والرفعة والمقال ، والكرم السيال ، وشجاعة الابطال ، وشرف الرجال ، ((لأنه يمثل الفروسية الشريفة التي

---

(1) في تاريخ الادب الجاهلي : 451
(2) شرح ديوانه : 83.

هيأت مثلها الرفيعة لظهور الغزل العذري عند العرب))[1] فيعد المهندس لخارطة الغزل على طاولة الشعراء الصادقين بشعورهم ، والمتمسكين بقيمهم والملتزمين بوفائهم لمن أحبّوا, لذا ذاق مرارة المخاطر , إرضاءً للخواطر .

ويسعى الشعراء بقصارى جهودهم الى تحقيق أمانيهم وطموحاتهم ولكن قد يتفاوت هذا الطموح وبلوغ الغاية ، وفي الوقت نفسه قد تحقق الغاية بمستوى الطموح ، وهي أمور لايمكن الحزم بتحقيقها على وفق مايراد ولكن تبقى الجهود المبذولة بكل حزم وعزم سبلا رامية لتحقيق الارادة وإن كانت المجريات تتعلق بقدرة الخالق , فحاجة المرء الى تحقيق رغبة الذات ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمستوى الطموح الذي وضعه من خلال مفهوم الذات , والذي وظَّفَه لنفسهِ , والمجهودات التي تُشْبِعُ حاجته توجهه نحو السمو والرفعة ، والتحصيل والاستقلال أو بالأحرى يضعها موضع الانجاز والإكمال[2]هكذا اختمرت في نفوسهم كبرياء المُنى , وتلعلعَتْ في صدورِهم أصوات الطموح حتى لو تكللت قضيتهم بالمخاطرو((لاشك أن الطموح حق مشروع يمارسه من يجد في نفسه الدوافع والمؤهلات للوصول الى هدف معين يبعث في النفس الرضا والامل والاطمئنان ، ويؤكد في الجو الاجتماعي امكانية اثبات الذات))[3] بالأرادة

ولقد لخص لنا أمروء القيس هذه الأفكار في قصيدته الدالية، مستدرجا بالحديث عن تجربته في رؤيا خاصة إتجاه احتمالية الموقف في إدراك المنى وعدم إدراكه في قوله: (قد اتمنى فألقى المنى .وقد يصبحُ) في صدر البيت الأول وعجزه، مدلياً بوجهة نظرة إن المرء في بعض الأحيان يدرك المنى من دون جهد، ويصبحَ في عينه بياض جراء تحقيق الأمنية والفرح بها، وفي حالة عدم تحقيق المنى يعتمد على قوة الجسد والذات راكباً مخاطرها، وبكل وقاحة واصرار معززاً ذلك بالعناد من دون ان يبالي، مؤمناً بركوب المخاطر من اجل تحقيق المنى, وهي اشبه بإشعال النور لإنارة الهدف, وبالمغامرة يجني ثمارها على اثر الدخول والتوكل من أجل الغاية المنشودة، معززاً قوله بخطابِ حاد موجه نحو قومه (أهله وأحبابه) بوصية ملزمة التنفيذ لأوامر الأمرة للإقدام والمخاطرة إذا ما رأوا الخصم عنيداً ومغامراً مستخدماً فعل المدح (نِعْمَ) في صدر البيت السادس والسابع ليجعل من المخصوص بالمدح (الفوارس . المعاقل) قوة جبارة لمواجهة الخصم، والتي تحمل كل لوازم

---

(1) الفروسية في الشعر الجاهلي : 204
(2) ينظر: علم النفس المعاصر : 117
(3) حقائق في اوراق نقدية : 88.

الحيطة والحذر من دون تهور أو طيش، وإذا كان الأمر بخلاف مايتمنون, عليهم التخندق في المعاقل؛ لأنها خير وسيلة للدفاع إذ كان الخصم عنيدا, إذ يقول[1]:

وقد اتمنَّى فألْقَى المنى وقد يَصْبحُ الليلُ عْندي حميدا

وألبسَ للحرب أثوابها وأركبُ للروع طَرْفاً عتيدا

أصاح ترى البرقَ ذات العشاء كما أشعل الباجسان الوقود

يُضيءُ سَناهُ إذا ماعلا رباباً ثِقالاً ومُزْناً نضيدا

فأوصيكم بطعان الكُماةِ إذا ما مَعَدٌ أرادَتْ مَريدا

فنعم الفوارسُ تحت العَجاج إذا ماالحديدُ اصلَّ الحديدا

ونَعْم المعاقلُ للخائفين إذا خِيفَ من ذائد ان يحيدا

وكثيرا ماكان شعراء العرب يوصون ابناءهم قبل الموت بوصايا في غاية الأهمية، تعبر عن آرائهم في الحياة وبنظرة مستقبلية بعيدة المدى مستوحاة من تجاربهم، مؤكدين بها على ضرورة الالتزام لما تحمله من مضامين تتعلق بكل مايعزز المكانة والشأن فبذلك تكون محط الثناء والتقدير،و(الوصية: تمليك مضاف الى مابعد الموت)[2] وفي الوقت نفسه أمنية الموصي أن تجري الحياة على وفق سياقاتها الصحيحة مع ضمان عدم الخروج عن قواعدها أو بنودها المرسومة، فسلوك الانسان الأدبي يبرز في عقله الواعي وإحساسه بالحدث الذي يبدو واضحاً من سلوكه المباشر منذ بداية وصف الشعور لرسم صورة الحاضر والمستقبل[3] لمن يهمه او تربطه به قرابة (فالشاعر حين يجمع بين عواطفه ومشاعره في الحب والحياة وعواطفه ومشاعره في الموت والفناء، انما يوظفُ حسه بهذا الطباق في صورة أدبية تعمل عملاً فنياً خلاقاً تتحرك فيه الفكرة الادبية بحرية وعفوية

(1) ديوانه: 252-254.
(2) كتاب التعريفات : 205
(3) ينظر : التحليل النقدي والجمالي للأدب : 75

وقوة)[1] تحت فضاء واسع من الشعر ومتلقيه، وهي حصيلة تضافر جهود مشتركة للحظوة بحياة حرة كريمة ترفل بالأمن والأمان, وفي ظل أجواء رومانسية يسودها الارتياح النفسي والمكاني بعيداً عن الهلاك والخطر .

هكذا تبرز ثِقةُ الشاعر (ذو الاصبع العدواني) بنفسه ليغرد بنشيد القول والفعل، متحدثاً عن معاركه بوجه الخصم، وملاقاتهم الكُماة بكل فنون الحرب، معاهداً الذات بالثبات وعدم التفكير بالمغادرة من ميادين الشرف, متوشحاً بسلاح الصبر كالضيغم الذي يهصرُ فريسته المخضبة بالدماء صورة بيانية لكشف حقيقة معدن الرجال ساعة الخطر, إذ يقول[2].

وإذا القُدُومُ تَخاطرَتْ يوماً وأرْعَدَتْ الخَصيلا

فآهْصر كَهَصْر الليث خَضْب من فريستهُ التليلا

وأنزلُ الى الهَيْجا إذا أبطالَها كَرِهوا النُّزولا

هكذا كانوا شعراء الجاهلية في تحوط وحذر دائمين، خوفاً من الوقوع بمزالق الخطر, لذا جاءت قصائدهم بشيء من الحكمة والتعقل، والنظرة البعيدة بسداد الرأي في طرح التجارب الى لذة الأكباد (أولادهم)، وهي خطوة جبارة لنقل أفكارهم ووصاياهم بفطنة وتمعن من أجل رسم جادة الطريق بالنصح والارشاد قبل حدوث الفعل الذي تحمل مظاهره التوتر المقرون بالتهور والطيش, والذي يفضي بهم الى التسرع في القول أو إصدار القرار, وفي الوقتِ نفسِه نقله نوعية لتجاوز الأزمات بوعي مسبق وبفكرة حكيم قد خاض تجربته ونوَّر بها ذويه لكي لايكونوا رهينة الأخطار .

والعربي بطبعه منذ صغره على مشاهد الحياة الملأى بالأخطار، يروِّضه أبوه على ذلك عندما يأتي دوره، مما يدفعه إلى إزدراء كل مايبعده عن العنف معجباً بالقوة مهما كانت النتائج[3] وفي حالة نشوب الحرب دفاعاً عن النفس والقوم يتمسك الجميع بالمثل العربية ولايتخلوا عنها؛ لكونها تعني الوجود الإنساني جسداً ودماً لذا جاءت وصاياهم بلسماً لجراح ودواءً لداء؛ وذلك من خلال وضع النقاط على الحروف بعدم التخلي عن القيم والمبادئ مهما كانت الظروف .

---

(1) المصدر نفسه والصفحة نفسها

(2) ديوانه : 74 . الخصيلا : لحم الفحذين . الهصر : الجذب والإمالة والكسر. التليل : العنق .

(3) ينظر : الفروسية في الشعر الجاهلي : 49 . وينظر : تاريخ الادب العربي , العصر الجاهلي , بلاشير : 37

لذا تعالت صيحات الشعراء وهي تنادي ذويها بضرورة مراجعة النفوس والتحسب لغد, حفاظا على الثوابت والاصول المتمثلة بدستور القيم والمبادئ، ومن بين هؤلاء عمرو بن سميٍّ المنقري وهو يرسم صورةُ عن طريق الحس ، ومن خلال الحِكَم والوصايا بناءً على تجربته التي ذاق مرارتها, مؤكدا ذلك بالوصية؛ لكي لاتكرر الهفوات ثانية على مرور الزمن، وهو يطمح الى مزيد من الرقي والسؤود وبناء الامجاد ولايمكن الظفر بهذه الغاية إلا بالمغامرة، وشهر السلاح بوجه الخصم، منبهاً إياه المحافظة على مابناه الآباء والأجداد؛ لأن تثبيت الحق والمحافظة عليه من الامور الشاقة كالأشياء المرّة لاتقبلها النفس بسهولة، علما إنه هو أهل لذلك وأجدر, إذ يقول:[1]

لقد اوصيت ربعى بن عمرو اذا حزبت عشيرتك الأمور

بأن لا تفسدوا ماقد سعيا وحفظ السورة العليا كبير

وجاري، لا تهيننه، وضيفي إذا أمسى وراء البيت كور

يؤوب إليك، أشعث، جرفته عوان، لا ينهنها الفتور

أصبه بالكرامة، وأحتفظه عليك، فإن منطقه يسير

وإن من الصديق عليك ضغناً بدا لي، إنني رجل بصير

بأدواء الرجال إذا التقينا وما تخفي من الحسك الصدور

فإن جهدوا عليك فلا تهنهم وجاهدهم إذا حمي القتير

وإن رفغوا الأعنة فارفعنها إلى العليا وأنت بها جدير

وإن قصدوا لمر الحق فاقصد وإن جاروا فجر حتى يصروا

(1) كتاب الاختيارين المفضليات الاصمعيات، 419 – 422 . حزبت : فاجأت , وَدَهَمت. السورة:المجد والسيادة . الحسك:الشوك , ويقصد به الحقد والعداوة . القتير: رؤوس مسامير الدروع.

وقد تجسدت الافكار نفسها عند قيس بن الخطيم وهو يحذر بني دُحيٍ[1], وينصحهم من إثمهم, وعدم مصداقيتهم, وهذا ليس بالغريب منهم بل هو ديدنهم, مستعينا بحرفِ النداء القريب (الهمزة) لكي يفصح عن فكرته وبصراحة القول لمن يفخرون بالفارغ ولايستحقون ذلك بأنفسهم زور, مستفهماً بـ (أنى) التي تدل على الحال ليكشف حقيقة المغلوب وفخره الكاذب، ولم يكتف بهذا القرار، مستعيناً بالبيان ليرسم حقيقة الواقع بلا رتوش من خلال التشبيه ومن أرض المعركة، مصوراً إياهم وهم في امرٍ لا يحمد عقباه، وكأنهم أغنام ضمئت فتسارعت لورود الماء، وهي في الوقت نفسه كناية عن الإذلال والخسران، محذراً إياهم بصيغة النهي والتوكيد بقوله: (إن الفضاء لنا فلا تمشوا به) متحدثاً بضمير الجماعة المتصل بحرف الجر في عبارة (لنا) والتي توحي بالهيمنة والتملك واستحواذ النصر، وهو يحمل سمة الاصرار العنادي من خلال لفظة (أبداً) التوكيدية صورة أخرى لقطع الحركة وتضييق الخناق، معززاً ما يقول بصيغة فعل الامر المتصل بواو الجماعة (سلوا) الكاهنين (بني قريظة ـ ومالكاً) لكي تتكشف الامور وتظهر بوادر الحقائق، فيتبين الغث من السمين ومن يتذرون بحماه عند المخاطر واشتداد أوار الحرب، إذ يقول:[2]

أبني دحي , والخنا من شأنكم أنى يكون الفخر للمغلوب

وكأنهم في الحرب إذ تعلوهم غنم تعبطها غواة شروب

إن الفضاء لنا فلا تمشوا به أبدا بعالية ولابذنوب

وتفقدوا تسعين من سرواتكم أشباه نخل صرعت لجنوب

وسلوا صريح الكاهنين وملكاً عن من لكم من دارع ونجيب

وحين يتعلق المحبون بمن احبوا , يخوضون بحار الحب بأمواجه وسفنه, معرضين أنفسهم للخطر بلا تردد أو خوف من أجل غاية الهوى وللتمعن بمن تعلقوا بهواهم , في سرد قصصي دقيق بين الجوى والجوانح , وفي فضاء تلبدت سماءُه بالمرارة تارة, وَتَكَشَفتْ بالحلاوة تارة أخرى تبعا لتطابق الآراء أو اختلافها، (والحب قوة خفية توضع مقابل تعدد المحظورات الموجودة في المؤسسات الاجتماعية يُضحي بالعشاق من أجل حبهم, الأمر

(1) بني دوحي : بطن من بني الحدان من بني غالب بن عثمان. الاشتقاق: 510 – 511 .
(2) ديوانه : 61-62 . العالية : اعلى الوادي. الذنوب:اسفله . الفضاء:موضع بالمدينة. الكاهنان:حيان من بني قريضة . نجيب: كريم الحسب.

الذي يتساوى ضمناً بهذه الطريقة مع عشق الموت)[1] هكذا تثبتت العلاقات الغرامية بجذور الحب الذي يعد الركن الاساس لوجود البشرية وتكاثرها. لذا (فالحب العميق هو ذاك الذي يتم من أول نظرة)[2] فيتعلق بشغاف القلب وبمسمار الهوى حتى الظفر بالنتائج الإيجابية التي تسره, وتسر من يهواه؛ لذا غاصت أقلام الشعراء حبراً ودماً بالتعبير عما في دواخلهم (ذواتهم) بحرارة الوصف الرمزي, ومهما استخفى الشاعر وراء الرمز اللغوي المبتكر الذي ينتمي إلى عالم الشعر فإنه يظل حافزاً ويظل لحضوره فعالية خاصة[3]ومتميزة .

ويبقى فن الوصف مرهونا بالتشبيه , وشاخصاً يجسد المعنى ويقربه للقارئ والمتلقي , ويعد مشعل عثرة* لإنارة الطريق, وصورة مشرقة لنقل الاخبار من قلب الحدث ولاسيما اذا كان الامر يتعلق بالشأن الداخلي , ولنا على سبيل المثل مايعزز القول بالشاهد والدليل والحجة والبرهان المسيب بن علس الذي قد أحسن و أجاد في وصف من يهواه , حبيبته , والتي هي بعينه بمثابة الدرة في فضاء البحر , والغواصون فيه من أشد المنافسين له للحظوة بمن يهواه , ولمهارته وحسن تدبيره جعل الأمور تجري على وفق مايريد , فباءت محاولات منافسية بالفشل على وفق خطته المدروسة بعد أن طلى جسده بالزيت , ((ودفعه الفقر إلى المخاطر أملا في الاستغناء بها))[4] ولم يكن سلوكه هذا إلا ثأرا لوالده الذي خاض غمار العشق والهوى , وغرق في أمواجه , لذا يرسم الأبن صورة لموقفه اتجاه والده تارة ولموقفه اتجاه من يهواه تارة اخرى , صابراً مكابراً حتى الظفر بدرته الثمينة اللماعة فيضمها الى صدره , تمسكاً واعتزازاً, هكذا جعل الشاعر من الحلم رسما للحقيقة , وأملا لتحقيق رغبة الذات , وهو يعيش حالة الخطر مرتين في الحلم والحقيقة إذ يقول:[5]

فانصب أسقف رأسه لبد نزعت رباعيتاه للصبر

أشقة يمجُّ الزيت ملتمس ظمآن ملتهب من الفقر

قتلتْ أباه فقال أتبعهُ أو أستفيد رغيبة الدهر

نَصَفَ النهار الماء غامره ورفيقه بالغيب لا يدري

---

(1) الاسطورة والادب: 94
(2) الزمان الوجودي: 180
(3) ينظر : الشعر العربي المعاصر , قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية:392.
*وهي أداة من ادوات التنوير , مصطلح عسكري
(4) الاصول الفنية للشعر الجاهلي:28
(5) ديوانه: 41 – 44 . النجر:طيب الاصل. السجحاء: الناقة التامة طويلة الظهر والمراد هنا الموجة العالية. الصراري: الملاحون

فأصاب منيته فجاء بها صدفية كمضيئة الجمر

يعطى بها ثمناً ويمنعها ويقول صاحبه ألا تشتري

وترى الصراري يسجدون لها ويضمها بيديه للنحر

فتلك شبة المالكية إذ طلعت يَهجَهَا من الخِدْر

وكأنَّ طَعْمَ الزنجبيل به إذ ذقته وسلاقة الخمر

كجمانة البحري جاء بها غواصُها من لجَّة البحر

صَلِبُ الفؤادِ رئيسُ أربعة متخِالفي االألوان والنّجر

فتنازعوا جتى اذا اجتمعوا ألقوا إليه مَقالدِ الأمر

وعلَتْ بهم سججاء خادمةٌ تهوى بهم في لُجةِ البحر

حتى اذا ما ساء ظنّهم ومعنَى بهم شهرٌ إلى شهرِ

ألقى مراسيه بتَهْلُكةٍ ثبتت مراسيها فما تجرى

وتحمل الوصية عند الشعراء سمة التحذيراحياناً وبشدْة للحفاظ على الموروث القيمي والاخلاقي, للسير على خطى الآباء والأجداد ، والذي أكد عليه رسولنا الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم) في حديثه الشريف ((انما بعثت لإتمم مكارم الأخلاق)) [1] لذا فشعراء الجاهلية يستطردون خصالهم وفعالهم بكلَّ فخر واعتزاز لما لها من أثر خالد وبمردود إيجابي تستروح له النفوس بوصفه المصدر الاساس الذي يبعث الفرح في كل مكان ، فيثير العواطف ، ويحرك ألسنة الشعراء)) [2] لبث وصاياهم وبصيغة التحذير بضرورة الحفاظ على هذا الصيت والذكر الحسن .

([1]) مسند الشهاب: جـ2/ ص192 .
([2]) شعر الحرب في العصر الجاهلي : جـ1 /227

وهذا ماعَرَّجَ عليه عمرو بن مَعْدِ يكَرِب الزبيدي , وهو ينقل لنا وصاة أبيه برسالة شعرية تحمل لغة الطلب والتوكيد المقرونة بالضمائر في اثناء النص الشعري (إنّى حويتُ ، حذْرني ، قد نلْتُ ، فحاذر، فافعل ، فقد تركتك ، أتركْ ، أعمدْ) وهي صيغ لغوية ناطقة بلسان القيم ، وبمفردات تحمل كل معاني التحذير , بعدم التجرد عن القيم أو التفريط بها مهما كلف الامر ذلك أذ يقول:[1]

انّي حوْيتُ عن الأقوام مكرمةً قدماً وحذَّرني مايتقون أبي

فقال لي قول ذي رأي ومقدرةٍ مجربٍ عاقلٍ نزه عن الديب

قد نلْتَ مجداً فحاذْر أن تدنسه أبٌ كريمٌ وجدٌ غير مؤتشبِ

أمرتُكَ الخيرَ فافعلْ ماأمرْتَ به فقد تركتُكَ ذا مالٍ وذا نشبِ

وأتركْ خلائق قوم لا أخلاق لهم واعمد لأخلاق أهل الفضل والأدبِ

ولم يكن أشد وقعا على النفوس الأبية إلا الاعتداء أو التجاوز بعدم احترام الآخرين ، وبعبثية التجاهل، وهو اسلوب مستهجنٌ ومرفوض لما له من أثر في خلق ردود الفعل الذي تسفر نتجائجه التمرد على الجاني حتى تمتد جذور القضية الى لغة التهديد والوعيد وبصيغة التحذير رداً للأعتبار ، وهي اجراءات وإن كانت عفوية إلا إنها تحمل روح الإثارة بدعوة عدم قبول الذّلُ أو عدم السكوت على كل مايثلم الكرامة، من أجل ذلك فعلى الانسان ان يختار طريق الحق وينهج النهج القويم ويستعمل قوة الحكم عنده وقوة عقله ، فضلا عن إرادته الحرة الكريمة[2] , هكذا تملمت نفوس الشعراء وهي تحمل روح التصدي والتحدي ، والمقاومة وعدم المساومة ،أو بقبول العزة رفضا للذل, أو عدم السكوت على الضيم اعتزازاً بالكرامة .

ولقد رسم لنا النابغة الذبياني مشهدا انفعالياً من خلال السرد القصصي الذي يعبر فيه عن ردود الفعل إتجاه الخصم بغيته وتماديه ، موجهاً رسالته بنشيد الحرب الذي تضمنت قوافيه مفردات الهيمنة والنفوذ، والقدرة على المواجهة بأسلوب يخلو من الهدوء والتراخي ، مؤكدا السير على خطى النعمان وسياسته أما الحديث عن مصرعه فلا يشكل خطورة عندهم بل يزيدهم عزما وإصرارا، معاهدين انفسهم بمتابعة الخصم

---

(1) ديوانه:34-35

(2) ينظر : مبادئ الفلسفة:73

ودحره اينما كان ، مذكرا إياهم كتيبة (رُبعيةٌ) التي كانوا يحذرونها دليل وشاهد على مايقول وعلى الرغم من تأسفهم على فراقه فلم يُتْركْ مكانه من غير بديل ، مفتخرا بقومه، مستطردا بفعالهم وقدراتهم في الذودِ والدفاع عن أنفسهم، إذ يقول:[1]

فلايهنيء الأعداء مَصْرَعُ رَبَّهُمْ ولاعَتَقَتْ مِنْه تُمَيمٌ ووائلُ

وكانت لَهُ رُبعَّيةٌ يَحْذرونها إذا خضخضَتْ ماءَ السمِاء والقبائلُ

يسيرُ بها النعمانَ تْغلي قُدُرُهُ تجيشُ بأسبابِ المنايا المراجلُ

يحُشُّ الحداَة جالزا بردائِهِ يقي حاجَبْيه ماتُثيرُ القنابلُ

تخُبُّ , بأجِقيها الدُّروُع كأنها تَّهاء نُقيعٍ أفرَطتْهُ السوائلُ

يقولُ رجالُ يحملونَ خليقتي لعل زياداً لاأبآلكَ غافل

أبىَ غفلتي أنَّي اذا ماذكرتُهُ تَحَركَ حُزْنُ في حَشَا القلب داخلُ

وإنَّ تلادي إذْ نظرْتُ وشِكّتي ومهري وما ضمَّتْ إليَّ الأنامل

هكذا تغنى الشعراء بنشيد الحرب ، متمنطقين بقيمها ومبادئها وسياقاتها وفي الوقت نفسه متنكرين لكل مالايتواقف وما آمنوا به ، واستهووا بتطبيقه بالقول والفعل وبإرادة الذات المتعطشة لهوى المعالي بمعاني الذكر بما يرفع الشأن ويعزز المكانة ، وإن المعارك هذه هي التي ألهبت في نفوسِهم تلك العواطف مما دفعهم الى قول الشعر الملهب بالحماس وعلى محورين اولهما في وسط معمعة الوغى وثانيهما في نهاية المطاف , فهم في المجال الثاني أكثر ابداعا وجمالا، وفي الأول اكثر اثارة وحماساً[2] ، وذلك لأن المواقف والظروف التي طوقتهم اجبرتهم على اختيار هذا السلوك الحربي الذي يحمل ابعاد الفكر الناضج بقوة إرادتهم وحسن قيادتهم.

---

(1) ديوانه 116-118

(2) ينظر: ايام العرب واثرها في الشعر الجاهلي : 115

المصادر والمراجع

1- الاسطورة والادب: وليام رايتر، ترجمة: صبار سعدون السعدون، مراجعة: د. سلمان داود الواسطي، دار الشؤون الثقافية العامة، ط: 1، 1991م .

2- أسس الفلسفة: د. توفيق الطويل، دار النهضة العربية – القاهرة، ط: 5، 1967م .

3- الاشتقاق: لابن دريد، ط- جونتجن، 1854م، تحقيق: عبد السلام هارون، نشر الخانجي بمصر، 1958م .

4- الاصول الفنية للشعر الجاهلي: د. سعد اسماعيل شلبي، مكتبة غريب – القاهرة، 1977م .

5- أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي: منذر الجبوري، منشورات وزارة الاعلام – العراق، دار الحرية للطباعة – بغداد، 1974م .

6- التحليل النقدي والجمالي للادب: د. عناد غزوان، دار افاق عربية للصحافة والنشر – بغداد، 1985م .

7- حقائق في أوراق نقدية: عدنان عبد النبي البلداوي، مطبعة أسعد – بغداد، 1988م .

8- ديوان أمرئ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف – مصر، ط: 4، 1958م .

9- ديوان ذي الاصبع العدواني، جمع وتحقيق: عبد الوهاب محمد علي العدواني ، محمد نايف الدليمي، مطبعة الجمهور – الموصل، 1973م .

10- ديوان عمرو بن معد يكرب الزبيدي، صنعة هاشم الطعان، مطبعة الجمهورية– بغداد، 1970م .

11- ديوان قيس بن الخطيم، تحقيق: د. ناصر الدين الاسد، دار صادر – بيروت، ط: 2، 1967م .

12- ديوان المسيب بن علس، جمع وتحقيق ودراسة: د. عبد الرحمن محمد الوصيفي، مطبعة الاهل، مكتبة الآداب – القاهرة، ط: 1، 2003م .

13- ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: د. شكري فيصل، دار الهاشم – بيروت، 1968م .

14- الزمان الوجودي: عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، ط: 2، 1955م .

15- شرح ديوان عنترة: الخطيب التبريزي، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه: مجيد طراد، دار الكتاب العربي – بيروت، ط: 1، 1992م .

16- شعر الحرب في العصر الجاهلي: ج1: د. علي الجندي، مكتبة الانجلو المصرية – القاهرة .

17- الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية: د. عز الدين اسماعيل، دار الثقافة – بيروت. 1966م .

18- علم النفس المعاصر: حلمي المليجي، دار النهضة العربية – بيروت، ط: 8، 2000م .

19- الفروسية في الشعر الجاهلي: د. نوري حمودي القيسي، مراجعة وتصحيح وتنقيح: د. محمد عبد اللطيف، عالم الكتب – بيروت، ط:1، 2004م .

20- في تاريخ الادب الجاهلي: د. علي الجندي، دار الفكر العربي- القاهرة، مؤسسة دار الكتاب الحديث، 1977م .

21- كتاب الاختيارين، المفضليات ، الاصمعيات: صنعة الاخفش الاصغر، تحقيق: د.فخر الدين قباوة، الفكر المعاصر – دمشق، ط: 1، 1999م .

22- كتاب التعريفات: السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني، مؤسسة التاريخ العربي، دار احياء التراث العربي – بيروت، ط: 1، 2010م .

23- مباديء الفلسفة: أ. س. رابويرت، ترجمة: أحمد أمين، لجنة التاليف والنشر – القاهرة، ط: 5، 1949م .

24- مسند الشهاب: محمد بن سلامة القضاعي، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط: 1، 1985م .